ثالثا: موضوعات الميتافيزيقا

على الرغم من أن الميتافيزيقا بدأت أنطولوجية.. Ontological في الفلسفة اليونانية، فعرفها أرسطو بأنها البحث في الوجود بما هو وجود.. Being as Being أو أنها علم الوجود ولواحقة، بمعنى أنها دراسة الظبيعة الوجود أو الخصائص العامة أو الكلية للوجود، فإن هذا المعنى، وإن استمر في العصور الوسطى، فإنه تغير في العصر الحديث وفي عصر التنوير، وفي الفلسفة المعاصرة. فقد امتد مجال الميتافيزيقا في الفلسفة الحديثة ليشمل مجال الإبستمولوجيا أيضا.. ..أعني نظرية المعرفة، فقد اهتمت هذه الفلسفة عند توماس هوبز والأسقف باركلى وجون لوك ..وديكارت ..وفي عصر التنوير عند ديفيد هيوم ، ثم بعد ذلك عند كانط.. اهتم هؤلاء الفلاسفة جميعا، بصفة خاصة، بمشكلة المعرفة. وطرحوا حولها العديد من الأسئلة: ما مصادر المعرفة؟ و الحواس أم العقل، أم الجمع بينهما، أم هي حاسة سادسة تسمى بالحدس أو »العيان المباشر«؟ وهل تستطيع قدراتنا وملكاتنا أن تعرف كل شيء؟ أن هناك أمورا تجاوز هذه القدرات بحيث يستحيل علينا أن نعرفها..؟ وما هي ية المعرفة البشرية، أعني ما النسيج الذي تتألف منه..؟ وما علاقة الذات طبي شرية العارفة، بالموضوع الخارجي الذي تعرفه؟ هل يمكن للأشياء أن توجد من الم الان قلة عن ذات تعرفها بشرية أو إلهية.؟.. إلى آخر تلك الأسئلة التي تشكل ما سميه الآن بمشكلة المعرفة، وذهب الفلاسفة المحدثون إلى أن دراسة هذه المشكلة ألة جوهرية حتى لدراسة الوجود نفسه وفهمه فهما عميقا وشاملا، إذ إن ملنا فيما يقول كانط أن نفحص ملكة المعرفة قبل أن نبحث في الوجود الحقيقي للأشياء، إذ «علينا أن نفحص الأداة قبل أن نعهد إليها بالعمل، فننظر فيما إذا كانت قادرة على القيام بعملية المعرفة أم لا..). ويدلنا ذلك على وجود صلات قوية وارتباطات وثيقة بين «الأنطولوجيا» (الوجود)، والإبستمولوجيا (المعرفة) . ذلك لأن البحث في الطبيعة الحقيقية للأشياء يستلزم البحث في قدرتنا على معرفة هذه الأشياء، ولما كانت

قوى الإدراك البشري سواء أكانت الحواس أم العقل، تتجه في بداية الأمر إلى العالم الخارجي الذي تقتضي حياة الإنسان أن يلائم بينه وبين نفسه، فقد نشأ البحث في الوجود الأنطولوجيا)، قبل البحث في المعرفة (الإبستمولوجيا) – وعندما فرغ الإنسان من تأمل الموجودات التي تزخر بها البيئة من حوله، أخذ يتأمل ذاته وقدراته وملكاته محاولا الكشف عن أسرارها، وعلى هذا النحو كان ظهور مبحث الوجود سابقا على مبحث المعرفة لكنهما معا مبحثان ميتافيزيقيان، ومن هنا فقد ذهب بعض مؤرخى الفلسفة إلى أن الميتافيزيقا تشمل المبحثين معا: نظرية الوجود ونظرية المعرفة في آن واحد.

وإذا كانت الميتافيزيقا قد بدأت عند أرسطو دراسة للوجود ولواحقه كما سبق أن ذكرنا فكانت «أنطولوجية»، فلابد أن ننتبه إلى أمرين هامين في الفلسفة المعاصرة:

الأول: أن هناك من الفلاسفة من يعتقد أنه يمكن قيام ميتافيزيقا با «انطولوجيا» على نحو ما فعل الفيلسوف الإنجليزي المعاصر ر. كولنجوود.. الذي أراد أن يجعل من الميتافيزيقا دراسة للافتراضات السابقة.. على اعتبار أن الإنسان عندما يعبر عن فكره في جملة فانه يجد ان هناك عددا كبيرا من الأفكار تكون في رأسه اكثر مما تعبر عنه الجملة التي نطق بها وهي أفكار يمكن أن يسبق بعضها بعضا، وان كانت الأسبقية هنا منطقية Logical Priority لا زمنية).

الثاني: هو أن مصطلح «الأنطولوجيا، أو الوجود قد تغير معناه في الفلسفة المعاصرة، فلم يعد الوجود بصفة عامة Being أو دراسة الخصائص الكلية للوجود و المقولات التي هي لواحق للوجود على نحو ما كان عليه عند أرسطو، بل أصبحت كلمة الوجود الفعلى Existence، عند الفلسفة الوجودية التي اشتق اسمها منه. تعني أساسا الوجود العيني الفريد Unique لشخصية الموجود البشري الفرد. .

فهم لا يهتمون بالوجود الخارجي – أى العالم – إلا من منظور إنساني. أعنى منظور الوجود . في العالم» أي وجود الذات البشرية بين غيرها من الموجودات أولا، وبين موجودات البيئة ثانيا، ثم يعكفون على دراسة خصائص الذات البشرية التي هي الوجود العيني على الأصالة، كالطابع الهلامي الانبثاقي المتعالى الذي ينجذب نحو موجود آخر، وخاصية العلو، والحرية، والتفرد، وارتباطه بذاته.. إلى آخر هذه الخصائص التي سوف نعرض لها فيما بعد.. .